الظاهرة العذرية في كتاب: سوسيولوجيا الغزل العربي لطاهر لبيب

الدكتور: عاشور توامة

المدرسة العليا للأساتذة المجاهد الفريق أحمد قايد صالح ببوسعادة/ الجزائر

قسم اللغة العربية

Verginity in the Book : Sociology of Arabic Flirtation for Taher Labib

Dr. Achour Touama

Higher School of Teachers, Bousaada, M'sila, Algeria

the department of Arabic language

achourtouama@gmail.com

Abstract:

This study deals with dimensions of critical view which the researcher Taher Labib has based himself on in his sociology of virgin poetry. He adapted the concepts of sociology that he took from Marxist thoughts and the formative structural approach in adopting a procedural plan to look for the deep structure that exhibits the Arab self. And how this combination of the aforementioned approaches enabled him to approach the phenomenon of virgin poetry of a group of Arab poets who have lived materialistic, social, and cultural conditions allowed them to be socially aware and that was obvious in their miserable view grounded on deprivation.

Key word:

Virgin poetry – sociology – deep structure - deprivation

الملخص:

يتناول هذا البحث أبعاد الرؤية النقدية التي أخذ بها الباحث طاهر لبيب في قراءته السوسيولوجية للشعر العذري، واستعانته بتطويع مفاهيم منهج علم الاجتماع الذي استوحاه من الفكر الماركسي، والمنهج البنوي التكويني في انتهاج خطة إجرائية في البحث عن البنية العميقة الدالة المكونة للذات العربية وتشظياتها، وكيف مكّنه هذا الدمج بين المنهجين المذكورين من مقاربة ظاهرة الشعر العذري لزمرة من الشعراء العرب، الذين عاشوا شروطا مادية واجتماعية وثقافية مكّنتهم من أن يكون لهم وعي جمعي، تجلّى في رؤيتهم المأساوية التي أساسها الحرمان.

الكلمات المفتاحية:

الشعر العذري – السوسيولوجيا– الحرمان– البنية العميقة

1– مقدمة:

من المقاربات البنوية العربية التي استوحت المنهج البنوي قراءة الباحث التونسي **طاهر لبيب**، المتمثلة في كتابه الموسوم **"سوسيولوجيا الغزل العربي (الشعر العذري نموذجا)"**[*]، الذي ألّفه باللغة الفرنسية عام 1972م وقد قام بترجمته **حافظ الجمالي** [*]بدمشق عام 1981م، ثم أعاد ترجمته من جديد **مصطفى المسناوي** بالدار البيضاء وذلك عام 1987م،[2075] حيث تعامل الباحث

---

[*] **العنوان الأصلي للكتاب/** La Poésie Amoureuse Des Arabes : Des Udrites (Contribution A Une Sociologie De La Littérature Arabe)

ينظر، لبيب طاهر، سوسيولوجيا الغزل العربي، (الشعر العذري نموذجا) تر: مصطفى المسناوي، دار الطليعة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1987م، ص4.

[*] تجدر الإشارة هنا إلى أن **حافظ الجمالي** قد ترجم الكتاب إلى عنوان: **سوسيولوجية الغزل العربي (الشعر العذري نموذجا)**، إلا أنه قد تمَّ اعتماد ترجمة **مصطفى المسناوي** لأنها أدق وأشمل نظرا لاستفادتها من الترجمة السابقة، ينظر، المصدر نفسه، ص4.

[2075]– لبيب طاهر، سوسيولوجيا الغزل العربي، ص4.

مع الشعر العذري بوصفه تعبيرا عن رؤية **"بني عذرة"** للعالم، وذلك عن طريق ربط شعرهم بسياقه التاريخي ومجاله الاجتماعي، محاولا تحقيق هدفين جوهريين هما: تحديد البنية الدلالية للنص العذري بوصفه تعبيرا عن **" رؤية الزمرة "*** التي أنتجته، ثم محاولة تحديد المنطلقات الأساسية لصياغة مقاربة بنوية تكوينية لتحليل النصوص الشعرية.[2076]

وقد حذا بالباحث من خلاله محاولة تطبيق المنهج البنوي على الظاهرة الشعرية العذرية شيئا من المرونة والتعديل للمعايير الإجرائية التي اقترحها **لوسيان غولدمان،**[2077] وفيه يرغب الباحث في تحديد وإبراز إشكاليات أكثر مما يجد لها حلا، ويأخذ على الأدب العربي أنه يهتم تقليديا بمظاهر ثانوية للإبداع وأنه قد سكن في جملة من الأحكام الموروثة، ولهذا ظل في منأى عن المقاربات المنهجية الجديدة التي ما فتئت تتطور وتُأكّد ذاتها في توجهات ومجالات العلوم الإنسانية الحديثة والمعاصرة. [2078]

وبالرغم من النتائج التي توصل إليها الباحث فإن الأهم من هذه المقاربة هي التعرّف على طبيعة المنهج الذي طبقه في قراءته السوسيولوجية للشعر العذري، وكيف استعان الباحث بمنهجين نقديين وهما: **" منهج علم الاجتماع "** الذي استوحاه من الفكر الماركسي و**" المنهج البنوي التكويني "** الذي أخذه من أستاذه **لوسيان غولدمان،** وكيف مكّنه هذا الدمج بين المنهجين المذكورين من مقاربة ظاهرة الشعر العذري لزمرة من الشعراء العرب، الذين عاشوا شروطا مادية واجتماعية وثقافية مكّنتهم من أن يكون لهم وعي جمعي، تجلّى في رؤيتهم المأساوية التي أساسها الحرمان.[2079]

ويبدو أن الباحث وضع كتابه هذا في سياقه الاجتماعي- التاريخي المعاصر له منطلقا من العام إلى الخاص، دارسا علاقة **" الانعكاس "** التي ترى أن الاجتماعي يؤثر في الأدبي للبحث في شعر العذريين، الذي قيل أنهم من ذوي العفة نتيجة التأثر العميق بتعاليم الإسلام، بحيث صاروا أكثر الشعراء امتثالية حتى قيل إنهم كانوا يتغنون بحب قصي بعيدا عن تحقيق مآثر الجنس المحظور.[2080]

وقد اهتم هذا المنهج المستوحى من مجال علم الاجتماع الأدبي لاسيما دراسات **لوسيان غولدمان،** ومستندا إلى مبدأ جدُّ بسيط مفاده أنه لا يجب مساءلة الشاعر **" عن شعره "** بل على العكس من ذلك مساءلة **" شعره عنه "**، وبالتالي فموضوعه هو تحليل الأثر الأدبي من الداخل، وقد أفضى بهذا التحليل إلى ملاحظة **" رؤية خاصة للعالم "** عند جماعة العذريين، وكأنها نواة وعيٍ جمعيٍ لفئة اجتماعية مُشخّصة كانت قد عاشت وفق شروط مادية خاصة.[2081]

2- اللغة العربية والحياة الجنسية:

تحدّث الباحث في الفصل الأول من كتابه عن اللغة العربية والحياة الجنسية حديثا مضطربا، معتمدا أقوال بعض المستشرقين المناوئين للإسلام أمثال **بوسكي** (Bousquet) في كتابه **" الأخلاق الجنسية في الإسلام "** الذي أكّد فيه أنه لا أخلاق في الإسلام، مؤيدا بذلك **سنوك هورغرونجه** (S.Hurgronje) الذي كان يرى أنه لا حق في الإسلام! **وتور آندري** (T.Andrae) الذي كان يدّعي أن لا عبادة في الإسلام![2082]

---

* **الزمرة** كما يرى الباحث هي« **نسقا من العلاقات ذات الدلالة التي يستند إليها أفراد الزمرة في تأويل علاقاتهم مع الآخرين**»، وليس مجرد جماعة تعيش في فضاء جغرافي معين، ينظر، المصدر نفسه، ص69.

[2076]- مؤيد عباس حسين، البنيوية، رند للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ط1، 2010م، ص 165/164.

[2077]- صدار نور الدين، البنيوية التكوينية -مقاربة نقدية في التنظير والإجراء، منشورات مخبر المناهج النقدية المعاصرة وتحليل الخطاب، كلية الآداب واللغات، جامعة معسكر، الجزائر، 2013م، ص183.

[2078]- لبيب طاهر، سوسيولوجيا الغزل العربي، ص5.

[2079]- نور الدين صدار، المرجع السابق، ص 184.

[2080]- لبيب طاهر، المصدر السابق، ص5.

[2081]- المصدر نفسه، ص 7/6.

[2082]- المصدر السابق، ص11 وما بعدها.

ويرى الناقد **محمد عزام** أن الباحث حينما أخذ عن هؤلاء المستشرقين الموتورين أوقعه في المغالطات التّاريخية؛ فقصة سيدنا **يوسف** –عليه الصلاة والسلام– الحقيقية التاريخية المذكورة في القرآن والإنجيل والتوراة يرى الباحث أنها **"أسطورة"** في بعض جوانبها، حيث جعل من هذه الأسطورة سندا آخر مُكمّلا لفهم القصة وهي بالغة الأهمية والأثر، [2083] باعتبارها تفسيرا جمعيا لاسيما في تأكيدها على حضور وغياب بعض العناصر المعتبرة أساس في تعريف الشخصية العربية المذكّرة، لأن هدف التفسير الأسطوري خلق مشاهد لا يوحي بها النص حتى بمجرد التفكير فيها،[2084] ولإيضاح ذلك يستند **طاهر لبيب** إلى مثالين:

المثال الأول: وهو أن القدرة الذكرية كامنة في قصة **يوسف** –عليه السلام– مشبعة في الأسطورة، قال تعالى: ﴿ **قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ** ﴾،[2085] وفيما يرى الباحث أن هذا الميل كان بوسعه أن ينتهي إلى علاقة جنسية بين رجل وامرأة وأكثر من امرأة، لأن القضية تتعلّق بطاقة ذكرية قوية وهذا ما يمكن أن يوحي به مشهد دخول سيدنا **يوسف** –عليه السلام– على سيّدات **مصر**، بعدما أعدّت لهن امرأة العزيز **(زليخا)** مُتّكئنا وسِكّينا لكل واحدة منهن، فقطّعن أيديهن دون أن يشعرن نتيجة الافتتان العظيم بحُسن وجمال* **يوسف** الصديق –عليه السلام.[2086]

يرى الباحث أن الأسطورة أرادت إظهار أن الإحجام الوَرِع **ليوسف** لا يضع ذكورته موضع الشّك، لذلك **السّراج** ولهذا فإن صاحب كتاب**" مصارع العشاق "** أورد أن **يوسف** كان أمام إغراءات **زليخا** المستمرة قد انقاد قدر جناح فظهرت عليه الرغبة على وجهه، وجعلته مشرقا وكان سرواله معقودا تسع عشرة عُقدة فحل أولّ عُقدة وإذ مُنادي يقول: ﴿ **وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ** ﴾.[2087]

ثم إن **الله** –سبحانه وتعالى– أوحى إلى الملك **جبريل**–عليه السلام– أن التحق فانفتح السَّقف ونزل **جبريل** فضرب صدره ضربة أخرجت شهوته من أطراف أنامله، وليس لنتيجة هذا التدخل الإلهي على المستوى الجنسي –حسب المعتقد الشعبي العربي– إلا أن تكون مؤقتة، فالذكر يجب عليه أن يرتوي لذلك اهتدى **يوسف** إلى الزواج من **زليخا** فيما يرويه **السّراج.** [2088]

المثال الثاني: وهو رغم تأكد زوج **زليخا** بمكر وخداع زوجته له إلا أنه اكتفى بالقول –حسبما ذكرته الآية الكريمة:﴿ **يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ** ﴾ [2089]، وهذا ما يُفسّر انعدام الغيرة الذي يستحيل تصوّره في القصة، وهو انعدام مقلق إلى حد أن البعض سعى إلى تفسيره علميا، بحيث أن مكان مجرى الأحداث **(مصر)** تقع فيما يفترض تحت **"طالع الجوزاء"**، الأمر الذي ينجم عنه من جملة ما ينجم قلة الغيرة لدى غالبية ساكنة مصر.[2090]

[2083]– عزام محمد، تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج النقدية الحداثية،(دراسة في نقد النقد)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، (د/ط)، دمشق، سوريا، 2003م، ص268.

[2084]– لبيب طاهر، المصدر السابق، ص27.

[2085]– سورة يوسف، الآية: 33.

* الحُسن لمن يُرى من قريب كذلك والجمال لمن يُرى من بعيد كذلك. أما سيدنا يوسف –عليه الصلاة والسلام– فقد اجتمعتا فيه هاتان الصفتان معا.

[2086]– لبيب طاهر، المصدر السابق، ص 27.

[2087]– سورة الأنعام، الآية: 151.

[2088]– لبيب طاهر، المصدر السابق، ص 27.

[2089]– سورة يوسف، الآية: 29.

[2090]– لبيب طاهر، المصدر السابق، ص 28.

وفي هذا يرى الناقد **مؤيد عباس حسين** أن الباحث قد سوّ بين النص القرآني وآراء بعض المفسرين المستشرقين، لما هو أسطوري في عرض قصة سيدنا **يوسف** –عليه السلام– وهذا الأمر كان يستوجب الكثير من الأناة والحذر، من أجل التفريق بين ما هو ديني وما هو مجرد رأي لاحق به. [2091]

3- رؤيـة الباحـث للزمـرة العـذرية:

يعرّف الباحث العمل الأدبي في قسم **" عالم العذريين "** فيأخذ بعين الاعتبار بعض عناصر التحليل النقدي: **" (البنية/ والفاعل التاريخي/ وبنية التماثل) "**، ويصوغ تعريفا يرى فيه أن العمل الأدبي « **كون رمزي تُنشئه زمرة اجتماعية يُمثِّلها المؤلف، ولها موقف مشترك تجاه هذا الكون الذي ترتبط بنيته، إن كانت متماسكة بالقدر الكافي، بعلاقة تماثل مع بنية عالم الزمرة الواقعي** »[2092]، ولا شك أن هذه الزمرة الاجتماعية لا تعني جماعة متآلفة من عدد من الأشخاص بقدر ماتعني نسَقا من العلاقات، ذات الدلالة التي يستند إليها أفاد الزمرة في تأويل علاقاتهم مع الآخرين، وهذه الزمرة الممثلة من شخص مؤلف لها موقف مشترك تجاه العالم الذي كانت بنيته كافية الانسجام، وعلى علاقة تماثل مع بنية العالم الواقعي لهذه المجموعة، ومن اللافت أن هذا التعريف للعمل الأدبي هو تعريف البنوية للأدب.[2093]

ومعنى هذا أن الدراسة المحايثة لعمل ذي دلالة ينبغي أن تفضي بالباحثين إلى الوجود التاريخي لزمرة خاصة فعلا، قد تكون هي مصدر هذا العمل، أما تفسير الواقعة الأدبية بحياة جيل ما على المستوى الشمولي للمجتمع فإن إشكاليته تتمثل أساسا في الغموض والالتباس، وقد كشف **لوسيان غولدمان** في كتابه **" الإله الخفي "**، أنه كلما تعلّق الأمر بإيجاد بنية تحتية لتيار أدبي أو فلسفة ما أحال هذا إلى طبقة اجتماعية وعلاقاتها مع المجتمع.[2094]

لقد اختار الباحث في دراسته متابعة الرمز العذري بالمُضي من العام إلى الخاص، من الرؤية للكوني إلى الأيديولوجية العربية الإسلامية، ثم انتهى إلى زمرة تاريخية خاصة كشف عنها على الصعيد النظري مبرزا التفاوت القائم بين الشر والواقع، وقد ذكر أن تعريف الحب العذري يتعرّض لإشكاليتين كحد أدنى وهما: استخدام مفردات مُثقلة بمتصورات جديدة لا مداليل تاريخية لها، والإشكالية الثانية الخارج عن الإرادة بعض الأحيان يتمثل في لجوء الباحث إلى تعريف الكورتيزيا الغربية، وإذا كانت الإشكالية الأولى تكاد تكون قدرا محتوما فإن الإشكالية الثانية سيحرص الباحث على تجنبها، وإلا انتهى إلى حلقة مفرغة تتمثّل في تطبيق تعريف العذريين الغرب على العذريين العرب، دون تحقيق الأهداف المرجوة عدا استنتاج التشابه بينهما. [2095]

وإذا ما تمَّ فحص العمل العذري في كليته المتماسكة باعتباره فاعلا جماعيا لوحظ أنه لا يقترب من واقع معيش مباشر، بل يقترب مما يسمّيه **غولدمان بـ: " الحد الأقصى للوعي الممكن "**، الذي اكتسبه العذريون عن طريق الرفض الذي اقتضاه التعاهد على العفة، **" وروايات العذريين "** التي عُرفت في العالم العربي منذ القرن السادس أو السابع الميلادي، وهذه واحدة منها: رجل وامرأة يتحابان حبا شديدا ومع ذلك فإنه يُحال بينهما وبين الزواج، فيعيشان منفصلين دون أن ينسيا حبهما أبدا ويموت الرجل من شدّة ما يضنيه من الأسى، فيؤدي ذلك إلى موت الحبيبة، وهذه هي قصة **عروة** الذي أحب ابنة عمه **عفراء**، فيعدُه أبوها بتزويجه إيّاها ألا أنه لم يف بوعده فزوجها بابن عمّها ومنافسه **أثالة**، فيذوي **عروة** من القنوط ويحاول أن يرى **عفراء** مرّة واحدة علّها تشفيه نظرة واحدة منها، ثم تاه **عروة** ومات وحيدا في وادي القرى وعندما علمت **عفراء** بموته ماتت هي– أيضا – فوق قبره.[2096]

[2091]- مؤيد عباس حسين، المرجع السابق، ص 169.

[2092]- لبيب طاهر، المصدر السابق، ص69.

[2093]- المصدر السابق، ص 69.

[2094]- المصدر نفسه، ص 70.

[2095]- المصدر نفسه، ص 71/70.

[2096]- المصدر السابق، ص 81/80.

وإذا كان هدف المحب هو الوصول إلى الطرف الآخر الشريك فإن الحبيب بالنسبة العذري ليست سوى ذاته الأخرى **(أنا آخر)**، ذلك أن الحبيب يعتبر متطلبات الحبيبة متطلباته هو تجاه نفسه، فكل شيء يتمُّ كما لو أن الإذعان ليس إلا عملية تجاوز للذات، وهذه العملية تؤدي إلى وضع ممتاز يكون فيه الحبيب محبوبا وجديرا بأن يحب، [2097] يقول **جميل:**

بُـثـيـنَ، أيًّـا مـا أردتِ فـافـعَـلـي إنـي لآتـي مـا أَشَـأْتِ مُعتلي [2098]

والحب مبني على التذلل فلا يأنف العزيز أن يذلّ لمحبوبته فلا يعده نقصا ولا عيبا بل ذله يُعدُّ عزا، [2099] يقول أحد الشعراء في عزّة التذلل للحبيبة:

إذا كُنتَ تَهـوَى من تُحبْ ولم تَكُـن ذليلا لهُ فاقـرأ السَّلامَ على الوَصـلِ

تـذلّـل لـمـن تـهـوى لـتـكْسِـبَ عِـزَّ فكم عِزّةٍ قـد نـالـهـا المرءُ بـالـذُّلِ[2100]

فالإذعان والتذلّل ما هو إلا وسيلة لبلوغ حظوة المحب فهناك من يعتبر التذلّل في الحب قوّة وملك وعزة،[2101] **فجميل بثينة** يتحدّى خصومه بشجاعة ولكنه يستعطف **بثينة** بكل رقة وتذلل بقوله:

أَبُثين، إنّـكَ قـد مَلَكْـتِ فـاسْـجِـحِـي وخُـذِ بـحـظِّـكِ مـن كـريـمٍ واصـلِ[2102]

وهذا التذلّل ليس نقصا في الرجولة لدى العذريين بل يرون أنفسهم أقوى وأعظم في إذعانهم، ويشير **ماكسيم رودنسون** إلى تواجد **" قبيلة عذرة "** في المنطقة الشمالية الغربية من الجزيرة العربية، إلا أن الحرب الدائمة بين الجماعات المتنافسة تمثّل لرجال **" بني عذرة "** الشاغل الرجولي الأول، فقد شعروا حينما صاروا عاطلين عنها كما لو أنهم فقدوا رجولتهم، غير أن هذه الطاقة والتنافس الحربي قد استثمر فيما بعد في الجهاد والفتوحات، إلا أن الباحث يضع فرضية مفادها أن العذريين الذين كان الحب عندهم استبطانا للجهاد، بالأحرى يشكلون قسما من فئة ظلت غير مبالية بالالتزام العسكري أو ربما كانت معارضة له، وهو أمر لم يتردّد **جميل** في الإشارة والتلميح إليه[2103] في قوله:

يَـقـولُـونَ: جَـاهِـدْ يَـا جـمـيـلُ بِـغَـزْوَةٍ وأَيَّ جِـهَـادٍ غَـيْـرَهُـنَّ أُرِيـدُ[2104]

[2097]- المصدر نفسه، ص 84/82.

[2098]- جميلُ بُثينة، الديوان، ص117.

[2099]- الجوزية ابن القيم، روضة المحبين ونزهة المشتاقين، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 2003م، ص199.

[2100]- لبيب طاهر، المصدر السابق، ص199.

[2101]- المصدر نفسه، ص84.

[2102]- جميلُ بُثينة، الديوان، ص107.

[2103]- لبيب طاهر، المصدر السابق، ص 85.

[2104]- جميلُ بُثينة، المصدر السابق، ص40.

ويرفض الباحث التفسير الذي يرد ظاهرة الشعر العذري إلى تأثر الإسلام على الشعراء العذريين، وهو التفسير الذي أخذ به **فيصل شكري** في كتابه **" تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام "**،[2105] ورأى فيه قوله تعالى:﴿ **إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ** ﴾[2106]، وأن النار قد حُفَّت بالشّهوات على حد ما جاء في الحديث الشريف، وأن من الخير لها أن تصبر﴿ **مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ** ﴾ [2107]، وأن تلتزم العفّة ﴿ **وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ** ﴾.[2108]

والحبيبة في مِخيال كونهم الشعري هي مخلوقة صعبة التناول، وهي أعلى مثالية أن تكون زوجة وعليها أن تبقى مثالا، ولذلك فإن العذريين يعِفون عند اللقاء ويشتقون عند البِعاد،[2109] يقول **جميل:**

يَـمـوتُ الـهَـوى مِـنـي إذا مـا لـقِـيـتُـهـا ويـحْـيَـا إذا مـا فـارقُـتـهـا فـيـعُـودُ
إذا مـا دَنَـت زِدتُ اشـتـيـاقـا وإن نَـأَت جَزِعـتُ لنـأْي الـدَّارِ منـهـا وللبُعـدِ[2110]

ومما يستنتجه الباحث من خلال مفارقة استحالة التوفيق بين الموقفين، أنه إما ابتكار عدم الإشباع لكي يتمَّ التمكين من إنجاز أعمال بُطولية تُقرب من الحبيبة، وإما ابتكار الإشباع واستعادة الحبيبة وكأن الأمر حلم، ويوضّح البيت الثاني أن الفراق مالم يكن مقصودا بوعي يفرض نفسه في الوقت المناسب:[2111]

الفراق	الوصال
أ/ الرغبة غير المشبعة = محاولة الاقتراب	**الرغبة المشبعة = محاولة الابتعاد**
ب/ الموقف اليائس **محاولة الاقتراب نقيضة الخوف**	**الموقف المفرط في الملاءمة** **الابتعاد يفرض نفسه بازدياد الشوق**

وعلى الصعيد السيكولوجي حينما يتحدّث البعض عن صراع بين الزواج وبين واجب الفارس العذري، فإن الأمر يختلف إذ يتدهور معنى الواجب في غياب الرغبة في إنجاب الأطفال، وتفسير ذلك عند العذريين بسيط وهو أن الحبيبة الصعبة المنال هي أسمى في مثالها من أن تكون زوجة، إذ عليها أن تظلّ غريبة، وبالتالي أجنبية فتصاعد الحب يتمُّ بناءً على جدلية تُعزّز أمْثَلَة المرأة بمقتضاها الحب الذي يُغدق تجاها، إلا أن هذا الحب هو الذي يؤمثِلها حين يُقصيها، ولذلك فإن التناسل لن يكون غير تشخيص يقلّص إلى الممكن ما ليس ممكنا غير مضاعفة للواحد في امتداده.[2112]

ثم ينطلق الباحث من فرضية **(التماثل)** بين وحدانية **الله** وتصوّر الحبيبة الوحيدة، **فالله** والحبيبة حاضران في الصلاة معا، وهذا التماثل تأثير إسلامي مشخص وقد رافق هذا تزايد تقديس الحبيبة الوحيدة،[2113] يقول **جميل:**

[2105] – لبيب طاهر، المصدر السابق، ص88.
[2106] – سورة يوسف، الآية: 53.
[2107] – سورة الكهف، الآية: 28.
[2108] – سورة النور، الآية: 33.
[2109] – لبيب طاهر، المصدر السابق، ص 94.
[2110] – جميلُ بُثينة، الديوان، 42/40.
[2111] – لبيب طاهر، المصدر السابق، ص 95.
[2112] – المصدر نفسه، ص 96/95.
[2113] – لبيب طاهر، المصدر السابق، ص 99.

أُصَـــلي فـأبكِي في الصّـــلاة لِـذكْرِهـا لـيَ الـويـلُ مـمَّـا يـكـتُـبُ الـمَـلَـكـانِ[2114]

وقد قال **مجنون ليلى** أبيات مشابهة محاولا التوفيق بين مالا يَقبل التوفيق:

أرانـي إذا صـــلـيـتُ يـمَّـمـتُ نـحـوهـا بـوجـهـي وإن كـان الـمصـــلَّـى ورائِـيـا

ومـا بـي إشـــراكٌ ولـكـن حُـبَّـهـا كعـــود،* الشّـــجا أعـيا الطَّبيب المُداويـا[2115]

إن التقديس الشعري للمرأة والذي يمضي من التضمين الدلالي إلى الشّرك بالله لا يتّفق مع تعاليم الإسلام والروح السُّنية، فالتّصوف الذي هو تمجيد حسّي للعِشق الإلهي قد أُدين باسم الدّين، فما بالك بالعُذريين وأن كانوا قد ألهموا المتصوفة التّغني بالمحبوب،[2116] فقد يكون الهوى وثَنا لأن: « **التوحيد واتباع الهوى متضادان، فإن الهوى صنم ولكل عبد صنم في قلبه بحسب هواه...**».[2117]

ومما تجدر الإشارة إليه بهذا الصدّد أن العذريين حاولوا إيجاد تبريرا لِهَواهُم، وذلك بالاستناد إلى الإرادة الإلهية، والتي يرونها قاصرة أحيانا بل وباعثة على التمرّد،[2118] فها هو **مجنون ليلى** يقول:

قضَـــاهـا لِـغَـيـري وابـتـلانـي بـحـبّـهـا فـهـلاّ بشـيءٍ غير لـيلى ابـتلانـيا[2119]

ولعل هذا ما أثار حفيظة المؤمنين كما يقول صاحب الأغاني: « **فبسماع أحدهم المجنون ينشد هذه الأبيات ردَّ عليه بصوت مرتفع: أنت المتسخّط لقضاء الله والمعترض في أحكامه!** ».[2120]

ويرى الباحث أن البدوي عندما يرى نفسه عاجزا عن فهم رسالة الإسلام، كان على العامل الأيكولوجي (**البيئي**) أن يملي صورة إنشاء " **وعي ممكن** " يمكن أن يتّخذ فيه الإيمان الديني مكانا له فيه، فوجد العذري في المرأة أكمل المخلوقات أو صنفًا إلهيا من الطراز الأول، فاسبغ عليها المثالية وأصبحت الوسيلة المعقودة لصعود روحاني لا يكتمل أبدا، وهذا ما ينقل البشر من الطبيعة إلى الثقافة. [2121]

فإذا استعرنا مصطلحات **لوكاتش** تضع الإنسان ضمن خيار جدلي أي بين الذي مضى والذي لم يأت بعد... والعالم العذري هو صحراء من سراب لا يموت الإنسان فيها إلا من الظمأ ولا تقبل الأسطورة أن يرتوي بطلها **فقيس بن ذريح** يتزوج **لُبنى** التي أحبّها أثناء تقديمها الماء له وبذلك وجب أن يفترق عنها وأن تتزوج من رجل آخر فلما ابتعد عن النبع لاحظ أن كل النساء لسن سوى عصارة حنظل إلا عن طريق العودة المقطوعة ويبقى أن نفس الظامئ يسترجع أحيانا صورا تصبح الرغبة الجنسية فيها واضحة،[2122] يقول **قيس بن ذريح:**

[2114]– جميلُ بُثينة، المصدر السابق، ص 129.

* كعود(**كمثل**)، ينظر، الأصفهاني أبي الفرج علي بن الحسين، الأغاني، دار إحياء التراث العربي، ط1، 1994م. مج 2، ص373.

[2115]– المرجع نفسه، ص373.

[2116]– لبيب طاهر، المصدر السابق، ص 103.

[2117]– الجوزية ابن القيم، المرجع السابق، ص 478.

[2118]– المصدر نفسه، ص 104.

[2119]– ابن الملوّح قيس (مجنون ليلى)، دراسة وتعليق: يسري عبد الغني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1999م، ص123.

[2120]– الأصفهاني، المرجع السابق، مج2، ص351.

[2121]– لبيب طاهر، المصدر السابق، ص 106/105.

[2122]– المصدر نفسه، ص 106.

ولـلـحَـالِـمِ الـعَـطْشَـــانِ ريُ بَـريـقِـهـا ولـلـمَـرَح الـمُـخْـتَـالِ خَـمـرٌ ومُسْـــكِـرُ[2123]

ويقول أيضا:

فـإن ذُكِرَتْ لُبنى هَشَـــشْـــتُ لِـذِكْرِهـا كمـا هَـــشَّ للثَّـدي الـدَّرورِ وَلَـيدُ[2124]

وقد يكون هناك تعويض وحيد للمحب الذي لا يرتوي أبدا هو البكاء، وهذا النوع من تعذيب الذات المازوشية يتكرر عندهم كثيرا، وهذا الحديث قابل للنقاش إذ فيه الصواب والخطأ، فليس صحيحا أن العرب لم يفهموا رسالة الإسلام وإلا كيف نشروه في العالم كله؟[2125]

وإذا قيل بتأثير الإسلام على العذريين فكيف يجعل العذري من المرأة أكمل المخلوقات أو صنفا إلهيا من الطراز الأول، والإسلام لم يقل بذلك بل جعل المرأة دون الرجل قوامة،[2126] ﴿ **الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ**﴾[2127]، و«... **شهادة المرأتين منكن بشهادة رجل...**» [2128]، وقد لاحظ **محمد عزام** أن الباحث جعل العشق نوعا من تعذيب الذات **"المازوشية"** في حين أنه **"مرض"** ينبغي معالجته.[2129]

وحين يتساءل الباحث عن العفّة وهل هي مجرد مجاز شعري أم حقيقة واقعية؟.. ينتهي إلى أن المسلمون أكثروا من الحديث والجدل عن الحياة الجنسية، فالقوة الذكرية هِبة طبيعية وميزة لا تعوض، فسيدنا **سليمان –عليه السلام–** الذي تقول **التوراة** بأنه كان له سبعمائة زوجة من مرتبة الأميرات وثلاثمائة محظية، وأن نساءه شردن قلبه، وكثير من النصوص التي تروي أنه كان يطوف على تسعين امرأة في الليلة الواحدة؛ أي ما يعادل عشر دقائق لكل منهن إذ كان يخصص للعملية اثنتي عشر ساعة في اليوم، ولا مجال للاستغراب والدهشة لأن **ابن جوزية** يؤكد إنه من البديهي أن **سليمان –عليه السلام–** يستعيد لدى كل منهن رغبة متجددة وحرارة تدفعه إلى الجماع.[2130]

ولا مجال للتحقق من المسألة ولا نتيجة لها سوى أن تجعل من هذا الذوق المفرط في حسيته ناتجا عن طبيعة الأشياء، وذلك بإرواء الحياة الجنسية فسمح **الله** بأن يتزوج الرجل أربع نساء عدا الإماء، وفي ذلك دليل على رحمته تعالى الواسعة وكمال الشرع وتوافقه مع الحكمة الإلهية والمصلحة البشرية، أما عن حرارة المرأة فإن شهوتها أبعد من أن تضارع شهوة الرجل، ودليل ذلك أنها تبرد بمجرد ارتواء شريكها، ولا تسعى لمعاودة المضاجعة مع شخص آخر.[2131]

[2123]– ابن ذريح قيس، الديوان، اعتناء وشرح: عبد الرحمن المصطفاوي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط2، 2004م، ص77.

[2124]– المصدر السابق، ص71.

[2125]– عزام محمد، المرجع السابق، ص273.

[2126]– المرجع نفسه، ص273.

[2127]– سورة النساء، الآية: 34.

[2128]– ينظر، الشيبان أبو بكر بن أبي عاصم، السنة، تح: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1400 هـ، ج2، ص464.

[2129]– عزام محمد، المرجع السابق، ص273.

[2130]– لبيب طاهر، المصدر السابق، ص 111/110.

[2131]– المصدر السابق، ص 111.

وتجد تقديس القوة الذكورية في السُنّة النّبوية من خلال النّبي –صل الله عليه وسلم– وحبّه لزوجاته وطوافه عليهن ليلا،[2132] وقد ورد عن ابن طاوس عن أبيه أن النبي صلى الله عليه وسلم « **أُعطي قوة أربعين أو خمسة وأربعين في الجماع** ».[2133]

والجماع الحلال يعتبر عملا من أعمال التقوى يُثاب عليه المؤمن، ففي الحديث الصحيح يقول النبي –صلى الله عليه وسلم– « **وفي بُضع أحدكم صدقة** »، [2134] وتمثل جملة " **الزواج نصف الدين** " حكمة شعبية في البلدان العربية والتناسل والتكاثر واجب مقدس ومفاد هذا كله ينتهي إلى أن العجز الجنسي ذو طابع مأساوي وكأنما هو عقاب إلهي وذلّ اجتماعي.[2135]

ومن هنا يأتي التقديس لعضو الذكورة الجنسي من حيث هو سبب التناسل، وهو تقديس يبدو أوضح في **التوراة** ما دام الرجل ذو الخصيتين المسحوقتين أو العنين ذو القضيب المقطوع لن يحظى بالقبول في مجلس الرب.[2136]

وعلى هذا الأساس فإن المسلم لا يتردد في أن يجعل من الجنس موضوع دعاء إلهي لاسيما أثناء الصلاة، فلقد كان **محمد بن المنكدر*** يدعو في صلاته قائلا: « **اللهم قوِّ لي ذَكَري فإن فيه صلاحا لأهلي** »،[2137] وكان **الليث بن سعد** إذا غشي أهله يقول: «**اللهم شُدَّ لي أصله، وارفع لي صدره، وسهّل علي مدخله ومخرجه، وارزقني لذّته، وهب لي ذريّة صالحة تُقاتل في سبيلك...** ».[2138]

وهكذا ينتهي الباحث إلى أن العفّة المعزوة إلى العذريين ليست في العمق سوى مظهرا عرضيا أو ثانويا ذلك أن تعذّر الوصول إلى الحبيبة التي تحول دونها العقبات يجعل المرء خاضعا مستسلما لأنه لا يستطيع أن يفعل شيئا آخر، [2139] ويؤكد هذا قول **جميل:**

وإنـي لأرضَـــى مـن بُـثـيـنـةَ بـالَّـذي ... لـو أبصَـــرهُ الـواشـــي لَـقَـرّت بَـلابِـلُـهُ
بـلا وبـألا أَسْـــتَـطِـيـعَ وبـالـمُـنَـى ... وبـالـوعْـدِ حـتَّـى يسْـــأَمَ الـوعـدُ آمـلُـهُ
وبـالـنّـظرةِ الـعَجلَى وبـالـحَولِ تَـنْـقَضِـــي ... أواخِـرهُ لا نَـلْـتَـقِـي وأوائـلـه[2140]

ومع أن العذريين يستبعدون عن عالمهم أمر العلاقة الجنسية بالمعنى الحقيقي، فإنهم لا يتوقفون عن دعوة الحبيبة إلى الجود مُعبّرين عن رغبة جنسية ملّحة، يجعلها الحرمان وعدم الإشباع بائسة ومرهقة لكنهم يتكلمون عن متعة حقيقية نالوها على مستوى القُبلة، التي تبلغ من الشّهوانية حدا تصبح فيه تعبيرا عن رغبة جنسية جامحة،[2141] يقول **جميل:**

[2132]– المصدر نفسه، ص 112.

[2133]– الصنعاني عبد الرزاق بن همام، المنصف، ج7، تح: حبيب الرحمن الأعظم، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1403هـ، ص 506.

[2134]– رواه الإمام ابن حنبل أحمد، المسند، تح: شعيب الأرناؤوط وعادل مرشد، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 2001م، مج35، ص 376.

[2135]– لبيب طاهر، المصدر السابق، ص 113/112.

[2136]– المصدر نفسه، ص 113.

* **محمد بن المنكدر** و**الليث بن سعد** شخصيتان معروفتان من رواة السنة النبوية.

[2137]– الجوزية ابن القيم، المرجع السابق، ص 214

[2138]– المرجع نفسه، ص 214/213.

[2139]– لبيب طاهر، المصدر السابق، ص 116.

[2140]– جميلُ بُثينة، الديوان، ص115.

[2141]– لبيب طاهر، المصدر السابق، ص 119.

تـجـودُ عـلـيـنـا بـالـحَـديـثِ وتَـارةً تجودُ علينـا بـالرُّضَـــابِ من الثَّغرِ[2142]

فالعاشق لا يسعى إلى تبادل أطراف الكلام وحلوّ الحديث مع محبوبته فقط، فهذه عند هي الجنة المترعة بألف لذّة ولذّة والتي ينتظرها التّقي، ولا يوجد مصدر الإشباع الحقيقي للمحب إلا فيما وراء قميصها،[2143] يقول **جميل:**

وإنـي لَـمُشْـتـاقٌ إلـى ريـحِ جِـيـبِـهـا كمـا اشْـتـاقَ إدريسُ إلى جَنَّـةِ الخُلـدِ[2144]

إن الحب بين الجنسين لا يمكنه أن يفقد مكوّنه الجسدي، لذا تظل الغريزة الجنسية مبعثه الأول، وأن هذا النفاق البريء للحب العذري يكشف عنه تعبيره هو بالذات، يرى علماء التحليل النفسي أنه عندما تُكبَح الشّهوانية لحساب عاطفة عذرية، فإن الأمر لا يعدو أن يتعلّق سوى بالتباس عاطفي إن لم يكن شذوذا، وفي مثل هذه الحالة تعويض عن الحب الجنسي الذي تُكبَت عناصره الشّهوانية الملموسة فيما تحت الوعي، وحتى على المستوى الفردي الذي يتموضع عليه جامعو المختارات الغزلية، فإنه لا يعتقد أن العذريين – ربما باستثناء **مجنون ليلى** كما أورد **الراغب الأصبهاني**– قد بلغ هذه الدرجة من التعويض، بل إنه لأكثر صراحة من مؤرخي الأدب! فنظرته لا تتحول كل التحول عن الجزء الأكثر إثارة من المرأة.[2145]

إن القدرة الذكورية على نحو ما تغنى بها الشّعراء الإباحيون تُعبّر عن سلطة مضمرة، أكثر مما تعبّر عن مباشرة فعلية للعملية الجنسية خارج الزواج، إنها سُلطة تسعى للنفوذ والهيمنة، فالنجاح الذي يلقاه الشاعر لدى النساء المحرمات أخلاقيا ودينيا يلخص وضعا اجتماعيا واقتصاديا تمثّل المرأة رمزا من مزاياه، باعتبارها رمز الامتلاك المرغوب فيه.[2146]

ويمثُّل **عمر بن أبي ربيعة** العيّنة التي تحظى بالإجماع باعتباره نقيضا للعذريين فهو رجل يعيش حياة دعَه، وينظم الشعر بذوق ويتغنّى بحكايات حب حقيقية، فهو مغامر ومحظوظ سهل الوصول إلى النساء فهن يأتين للُقياه لطلب الحظوة عنده. إذ تحيل أشعاره أن المرأة عنده طالبة لا مطلوبة وإن كان في الأمر مبالغة إن لم أقل افتراء فقد أورد **الراغب الأصبهاني** أن **عمر بن أبي ربيعة** اعترف أثناء الطّواف بالكعبة أنه لم يقترف كل ما قاله، وطلب المغفرة من ربه، ويؤكد عكس ذلك بإلحاح، [2147]فيقول: « **ورب هذه البَنيّة***، **ما قلت لامرأة قط شيئا لم تقله لي، وما كشفت ثوبا عن حرام قط** »،[2148]وحينما قارب الأجل طمأن أخاه الحارث حينما رآه قد جزع جزعا شديدا قائلا: « **أحسبك إنما تجزع لما تظنه بي، والله ما أعلم أني ركبت فاحشة قط! فقال: ما كنت أشفق عليك إلا من ذلك، وقد سلّيت عنّي** ».[2149]

– جميلُ بُثينة، المصدر السابق، ص59.[2142]

– لبيب طاهر، المصدر السابق، ص 119.[2143]

– جميلُ بُثينة، المصدر السابق، ص43.[2144]

– لبيب طاهر، المصدر نفسه، ص 120/119.[2145]

– المصدر نفسه، ص 121/120.[2146]

– الأصفهاني، المرجع السابق، ص87.[2147]

* **البَنِيّة: "الكعبة"** لشرفها إذ هي أشرف مبنىً، **يُقال: (لا وربّ هذه البَنيَّة ما كان كذا وكذا)**، وفي حديث **البراء بن معرور: (رأيت أن لا أجعل هذه البَنيَّة مني بظهر)** يُريد الكعبة، وكانت تدعى بِنية إبراهيم عليه السلام، لأنه بناها، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم أبن منظور الإفريقي المصري، لسان العرب، فصل **"الياء"** مادة **(بني)**، ص95.

– الأصفهاني، المرجع السابق، ص78/77. [2148]

– المرجع نفسه، ص 88.[2149]

كثيرا ما تساءل الناس عما إذا كان الشعر يعكس الحقيقة أم لا منذ القِدَم؟ إلا أن الباحث يرى فيما يعتقد بأن العرب كانوا يؤثرون الشّعر الذي يقلق ويتحدّى ويتجاوز الحقيقة، ولا أدل على ذلك من بلاغتهم فهم شعب المبالغة؟!... مثلما قيل عنهم.[2150]

4- تحليل قصيدة عمر بن أبي ربيعة:

راح الباحث **طاهر لبيب** يحلّل قصيدة **عمر بن أبي ربيعة** من خلال مستوى العلامات، إن بلوغ الوسط الأنثوي وبالأخص العلاقات الجنسية يُشير إلى وضع اجتماعي محدّد فإن كان ممنوعا فهو مرغوبا فيه على الأقل ويتعلّق الأمر هنا بوضع الاستمتاع والترف الاجتماعي والاقتصادي الممتازين والمرأة علامة متغيّرة فمن خلال أمثلة العذريين لها جعلها تصلُ إلى حد المنع أما من الناحية الإجرائية فقد أصبحت المرأة وسيطة بين الإنسان وربه فالعيش معها صار أشكالا ومغامرة ومن حيث أن المرأة خاضعة **لعمر بن أبي ربيعة** عبر تجسيد حياتها الجنسية تجسيدا فيما يبدو سيروق لرائد التحليل النفس **فرويد** لأنها تمثّل المحلّل الذي تنتقل إليه سيرورة دمج اجتماعي ناجح.[2151]

أما العفة من الوجهة الجنسية فهي رفض للعملية الجنسية لكن دون أن تكون الرغبة غائبة عن الشعور بهذه اللّذة، وإذا تمَّ وضع هذا الرفض ضمن السّياق الثّقافي لعصر الشاعر، تجد أنه ربما كان موصولا بواقعة ذات أهمية أنثروبولوجية كبيرة وفرضيات يصعب التحقق منها، ولقد اكتشف كل من **مرغريت ميد** M.Mead **وبرونيسلاف مالينوفسكي** B.Malinowsky أن العامل البيولوجي **" الأحيائي "** لا يفسر تنوع السلوكات الجنسية، وإنما ينبغي البحث عن عوامل ثقافية أساسية تساعد على اكتشاف هذا الاتجاه أو ذاك.[2152]

ففي ما يسميه **مالينوفسكي بـ: " المتتاليات الحيوية "** الدائمة الماثلة في كل ثقافة كالشّهوة الجنسية مثلا والتزاوج، وتفريغ التوتر يعود في الحقيقة إلى الطبيعة البشرية، ويأخذ نفس صورة التعاقب كالغرائز والأفعال والإشباع على جميع مستويات الحياة الاجتماعية، مثلما تجد في نسق **ماركس** الذي يضمر أن المتوالية جوع – غذاء – إشباع هي في الأساس لكل حافز بشري.[2153]

ومما ينبغي الإشارة إليه أن هذه المراحل تتجلىّ بصور مختلفة تِبَعا للأوضاع الثقافية، فقد تتغيّر وسائل إشباع الحاجات الجسمية من جماعة إلى أخرى محدّدة وظيفة خصوصية، فدراسة **مرغريت ميد** التي أُجريت على تلاث قبائل بدائية في**" غينيا الجديدة "**، لم تجد إجرائيا أي شيء يمكنه أن يبرهن على وجود مزاج جنسي فطري، لأنه ليست القضايا الجنسية واحدة رغم تقارب القبائل الثلاث مكانيا.[2154]

ومن يتفحص النماذج الشعرية التي اختارها الباحث **طاهر لبيب** لدى شعراء **" بني عذرة "** سيجد أن عنصر الذكورة مهيمن عليها دون الالتفات إلى شعر النساء على سبيل الذكر لا الحصر شعر ليلى الأخيلية مثلا.[2155]

وعندما ينتقل الباحث إلى دراسة المجموعة العذرية: عصرها ونموذجها وبنو عذرة واستراتيجيتها... يحوصل نتائجه كما يلي:[2156]

1- أن الأساس اللساني هو الذي ينقل مجموعة المفاهيم والقيّم التي تحدد التعبير الشعري أو تؤثر في توجهيه، فالتعبير الممكن يفصل الشاعر عن ذات حقيقته التي لا يمكن الإفصاح عنها.

[2150] – لبيب طاهر، المصدر نفسه، ص 123.

[2151] – المصدر نفسه، ص 123.

[2152] – المصدر السابق، ص 124.

[2153] – المصدر نفسه، ص 124.

[2154] – المصدر نفسه، ص 125.

[2155] – مؤيد عباس حسين، المرجع السابق، ص 170.

[2156] – لبيب طاهر، المصدر السابق، ص 129.

2- أن البنية الإجمالية للعالم العذري تتمثّل في معاناة الشخصية العذرية تجارب بؤس وحرمان، تحب أن تخترعها فتصبح ضحية مازوشية لها وذلك بسبب استحالة الوصول إلى الحبيبة.

3- هناك بُنى صُغرى ضمن البنية الإجمالية تجدد بعض التعارضات المتناقضة ظاهريا داخل البنية الشاملة، وبالأخص ما أوضحته العلاقة القائمة بين الكون الشعري والكون الديني، وهي بنيات صغرى وعديدة كان التركيز فيها على البنية التي تتعلق بمجال الحياة الجنسية، وملاحظة الالتباس القائم في العفة التي هي محور الحب العذري، بعد أن استعار العذري بعض عناصر الكون الديني قصد بناء كونه الخاص.

ثم ينتقل الباحث من الفهم إلى التفسير* فيضع المجموعة العذرية في فضاءها الزمني **" العصر الأموي "**؛ الذي تميز بمثاقفة وبتغير الشروط الاقتصادية والاجتماعية بسبب الفتوحات واختلاط الأجناس وتدفُّق الثروات وهيمنة العرب، والحيز المكاني **" وادي القرى "**؛ الذي يقع بين تيماء وخيبر، واسمه يدل على وجود عدد كبير من القرى فيه في القسم الجنوبي من الجزيرة العربية.[2157]

وفيما يخص تطور الحياة الاجتماعية يمكن مقارنة تطور المجتمع الأموي بتلك الظاهرة الفيزيائية المعروفة؛ وهي أن مختلف طبقات الكتلة المائية المتحركة لا تسير بنفس السرعة، لأن الاحتكاك يحد من سرعة بعض هذه الطبقات أكثر من سرعة الطبقات الأخرى، وإشكالية التاريخ الأدبي تكمن في اتصاله بالسياسي، في حين أن هذا الأخير ما هو إلا جانب من جوانب أخرى.[2158]

وتاريخ **" بني عذرة "** الجاهلي قليل الحروب وهذا يفسر قلة عدد شعرائهم وعزلتهم الجغرافية، فقد كانت الطرق التجارية منحرفة عنهم بسبب السّلاسل الجبلية المحيطة بهم، ويبدو أنهم كانوا وسطا بين حضر الحجاز وبدو الصحراء، لأنهم **" أهل القرى "** يعيشون الهامشية الاقتصادية والثقافية، ومن هنا عدم تلاؤمهم مع التملّك حتى إنهم يتخلّون عن امتلاك المرأة، ذلك أن الحرمان الاقتصادي قد أنتج –حسب ما يرى الباحث– حرمانا جنسيا.[2159]

ولكن علماء التحليل النفسي يرفضون هذه المقولة ويؤكدون عكسها وهو أن الحرمان الاقتصادي يؤدي إلى كثرة الاتصال الجنسي، ذلك أن الفقراء ليس لديهم بدائل أخرى عن لذّة الجنس كلذة اقتناء المال أو لذّة السلطة المتوافرتين لدى الأثرياء، ومن هنا يظهر ضعف بعض استنتاجات الباحث وخطؤها لأنها مبنية على مقدمات ومنطلقات خاطئة.[2160]

ومن مثالب الباحث أنه يجابه استحالة الوصول إلى الحبيبة باستحالة الزواج منها، ولهذا يكتفي العذري باستغلال القسم الأعلى من جسم الحبيبة، فيبيح لنفسه القُبَل والضّم واللمس...إلخ، فإذا كان الأمر كذلك فأين العفة التي وصف العذريون بها؟[2161]

إن الباحث حين ينكر عفة العذريين فإنما ينكر شيئا تواترت فيه الأخبار والأشعار، وأن الباحث عندما يُفسر الظاهرة العذرية بالشروط الاجتماعية والاقتصادية التي أوجدتها، فإنه ينكر –بذلك– تأثير التعاليم الإسلامية عليهم، كما أن اعتماد الباحث على المصادر العربية القديمة التي جمعت أخبار وأشعار العذريين، والمصادر العربية الحديثة التي عالجت ظاهرة الشعر العذري، من مثل ما كتبه **" العقاد/ وزكي مبارك/ وشكري فيصل/ وشوقي ضيف/ وصادق جلال العظم/...إلخ "** عن هذه الظاهرة، جعل بحثه يعوزه الكثير من الإضاءات والتفاصيل وفراغات النقائص.[2162]

---

* في مرحلة **"الفهم"** يتمُّ التركيز على شبكة المعاني التي يُوضّحُها التحليل الداخلي للنص من حيث اللغة والأسلوب والفضاء التعبيري...، وفي مرحلة **"التفسير"** تدخل هذه البنية في بنية أشمل منها، ينظر، مؤيد عباس حسين، المرجع السابق، ص 165.

[2157] – لبيب طاهر، المصدر السابق، ص 130.

[2158] – المصدر نفسه، ص 132.

[2159] – المصدر نفسه، ص 149/148.

[2160] – عزام محمد، المرجع السابق، ص274.

[2161] – المرجع نفسه، ص275/274.

[2162] – المرجع نفسه، ص 275.

5- نتائج البحث:

ينتج مما تقدم أن مقاربة الظاهرة العذرية للباحث **طاهر لبيب** ناجحة إلى حد بعيد في إبراز شبكة البنية الدلالية للقصيدة العذرية، ويمكن إبراز نتائج هذا البحث كالآتي:

1- كشف الباحث من خلال دراسته للظاهرة العذرية خصوبة المنهج البنوي التكويني وثراءه، وذلك من خلاله الفهم الصحيح نتيجة وضعه ضمن مجاله الاجتماعي ووفق شروطه التاريخية، مما كشف في العمق عن درجة الوعي العالية والطرح الموضوعي اللذين تحلّى بهما الباحث،* غير أن هذه المقاربة البنوية التكوينية لا تخلو من بعض هنات الريّادة والتفوق، من مثل إيراده للنماذج الشعرية العذرية كشواهد أو تعليقات فحسب لتأكيد معنى أو ترسيخ فكرة معينة، وغمطه لجماليات هذه النصوص الشعرية المختارة.[2163]

2- كما أبرزت هذه الدراسة عدم اهتمام الباحث بالجانب التوثيقي من مسيرة العذريين فبدأ وكأنه يبحث في تراث شعبي وليس واقعا معينا، وهذا ما يفرض عليه عند استقاء المعلومات التاريخية أن تكون موثقة وليس من مصدر واحد ليصل الى رؤية جماعية معينة للكون، كما أن الاستفاضة في اكتناه الدلالة الجنسية قد يشوّه الكون العذري، فلو كان الحديث عنها موجزا لكان أفضل وأكثر إفادة وإغناء.[2164]

3- الملاحظ على الباحث من خلال تطويعه لمفاهيم المنهج البنوي التكويني أنه حوّل دراسة البنية العميقة الدالة من الحالة السُّكونية الثابتة إلى الحالة الدينامية المتغيّرة، بهدف تجاوز البنية لبلوغ ذات متميزة من الناحية التاريخية، لأن التفاعل بين البنية والذات هو عودة إلى الطبيعة التكوينية، لذلك حصر الباحث مُكوّنات البنية العميقة الدالة، المتمثّلة في بنية الحرمان الاجتماعي التي أدت إلى بروز الظاهرة العذرية، والتي ترجع إلى أسباب التهميش الاجتماعي للزمرة العذرية المرتبطة بالظروف الاقتصادية التي عاشها الشعراء العذريون، وقد انطلق الباحث من فرضية لا تقبل الانعكاس الآلي بحيث تقوم على مبدأ المقارنة والمماثلة، كي يصل إلى تحديد الرؤية المأساوية التي من وراءها مكون الحرمان.[2165]

4- كان بإمكان الباحث الاستفادة من المراجع العربية والحديثة كي يحصل على نتائج أفضل، ولربما عَدَّل كثيرا من آرائه التي استوحاها من المصادر الفرنسية فحسب ومن **غولدمان** وحده، وعلى الرغم من ذلك فإن هذه الدراسة تظل رائدة، لأن الباحث أقدم من خلالها على معالجة موضوع معروف من وجهة المقاربة البنوية التكوينية التي كانت جديدة آنذاك، ولأنه وضع مقولات ومتصورات هذا المنهج النقدي موضع التطبيق في النقد العربي الجديد، منطلقا من تحليله لأهم العناصر الأساسية المرتبطة بالظاهرة الشعرية العذرية، وهذا ما مكّنه من فهمها ومقاربتها حينما نظر إليها الباحث على أنها **" بنية شاملة ذات دلالة "**، استعاض بها عن مرحلة الفهم التي تعتبر مقياسا أساسا، وشرطا إجرائيا ضروريا في المنهج البنوي التكويني.

5- استغنى الباحث عن تحليل البنيات اللسانية والجمالية التي تنهض على العلاقة الثنائية **(الرجل/ المرأة)**، التي تهدف إلى إبراز تفوق الذكورة على الأنوثة، إن هذا التفوق لا تجد مظاهره على مستوى الحياة الواقعية فحسب، بل تجده –أيضا– على مستوى اللغة العربية نفسها.[2166]

---

* يرى **مؤيد عباس الحسين** أن الباحث **لبيب طاهر** قد نجح في تأسيس منهجية جديدة يمكن بفضلها معاينة الكثير من نصوص تراثنا المعطاء إذ يقول الباحث: **« لن يقوم عملنا على استخراج بنيات لسانية أو بنيات جمالية بحتة، بل إن الأولى منها سيجري تعويضها قدر الإمكان ببنيات ذات طابع دلالي، أما الثانية فتتعلق بالخاصية الأدبية التي لا نقصد إلى تحليلها هنا»** لبيب طاهر، المصدر السابق، ص33.

[2163] - مؤيد عباس حسين، المرجع السابق، ص 169.

[2164] - المرجع نفسه، ص 170/169.

[2165] - المرجع نفسه، ص 184/183.

[2166] - صدار نور الدين، المرجع السابق، ص185/184.

6- تجلت مقاربة المنهج البنوي التكويني التطبيقية من خلال تحديد الباحث للبنية المستهدفة **" الكون الشعري العذري "**، وهذا مطلب إجرائي منهجي أكّدت عليه البنوية التكوينية، أضف إلى ذلك اعتماد الباحث مبدأ التماثل بوصفة أداة إجرائية تمكن من خلاله حصر رؤية الزمرة العذرية وإيجاد تفسيرٍ لها.

7- يمكن القول أن مقاربة الباحث اللبيب **طاهر لبيب** مقاربة بنوية رائدة من خلال تطويع مفاهيم المنهج البنوي التكويني، وانتهاجه لخطة إجرائية في البحث عن البنية العميقة الدالة المكونة للذات العربية، بوصفها ذات كلية متحكّمة في الكون الشعري العربي، ومن تشظياتها الظاهرة العذرية العربية وكونها الشعري الخاص بالزمرة العذرية المتميزة عن باقي الزمر الأدبية الأخرى.

قائمة المصادر والمراجع:

- **القرآن الكريم: رواية حفص عن عاصم.**

1- الأصفهاني أبو الفرج علي بن الحسين، الأغاني، دار إحياء التراث العربي، ط1، 1994م. مج 2.

2- الألباني محمد نصر الدين بن الحاج نوح، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السّيء في الأمة، مج1، دار المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 1992م.

3- الجوزية ابن القيم، روضة المحبين ونزهة المشتاقين، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 2003م.

4- ابن حنبل أحمد، المسند، تح: شعيب الأرناؤوط وعادل مرشد، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 2001م، مج35.

5- ابن ذريح قيس، الديوان، اعتناء وشرح: عبد الرحمن المصطفاوي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط2، 2004م.

6- الشيبان أبو بكر بن أبي عاصم، السنة، تح: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1400 هـ، ج2.

7- صدار نور الدين، البنيوية التكوينية –مقاربة نقدية في التنظير والإجراء، منشورات مخبر المناهج النقدية المعاصرة وتحليل الخطاب، كلية الآداب واللغات، جامعة معسكر، الجزائر، 2013م.

8- الصنعاني عبد الرزاق بن همام، المنصف، ج7، تح: حبيب الرحمن الأعظم، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1403هـ.

9- عزام محمد، تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج النقدية الحداثية،(دراسة في نقد النقد)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، (د/ط)، دمشق، سوريا، 2003م.

10- لبيب طاهر، سوسيولوجيا الغزل العربي، (الشعر العذري نموذجا) تر: مصطفى المسناوي، دار الطليعة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1987م.

11- ابن الملوّح قيس، دراسة وتعليق: يسري عبد الغني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1999م.

12- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، مج14، دار صادر، بيروت، لبنان، (د/ط)، (د/ت).

13- مؤيد عباس حسين، البنيوية، رند للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ط1، 2010م.